

يجب أن نعيش

كان عازف الكمان الأول ينظر إلى الزامر في البوق الكبير ويعجب لماذا يوالى النفخ وإخراج هذه الأصوات التي يختلقها ويدسها على اللحن ، ثم ينقل بصره إلى المدير فيزداد عجبه ، فهو أيضاً لا يزال يوميء إلى الزامرين في الأبواق ويدعوهم بالعصا إلى الاستمرار .

ماذا حدث ؟ كان يجب أن تسكت هذه الأصوات فجأة بالطرق الثلاث على الطبل الكبير لتهيء له دخولا خفيفاً هادئاً . . . ولكن الأبواق لا تزال في صخبها المرتجل ، وضارب الطبل لا يزال رافعاً يده بمطارقه منتظراً أمر الطرق من العصا المشغولة بالناحية الأخرى .

ونظر إلى الأوراق المثبته أمامه وساءل متى يبدأ دخوله ؟ لقد فات الأوان وتأخر كثيراً . يجب أن يبدأ الآن . . . وعاد يحملق في العصا التي تهتر في يد صاحبها في عنف مثير ، ولكنها لم تدمره . . . وظلت الأبواق تدوى .

وأحس بضيق شديد ، وهم أن يقف فينتبه المدير ، ولكن ساقيه لم تحتلماه وتهاوى في كرسيه ككومة من القش . يجب أن يبدأ ، فلا ريب أنه أخطأ التقدير ؛ فقد قال له المدير أمس إنه دخل متأخراً بعض الشيء ، وإنه أكل بعض الأصوات .

ولكن هذه الأبواق ألا تسكت !

ورأى ألا ينتظر أكثر من هذا ، فرفع القوس ودفعه على الأوتار بيد مضطربة دفعا شديداً ، فأزعجته الأصوات التي أصدرها فتوقف فجأة . وسمع في اللحظة التي تلت هذا السكون المفاجئ طبولا وأبواقاً وصيحات تزار وتهذر ، ورأى العصا ، وكأنها تقسمت إلى عشر أمثالها ، تقترب من وجهه حتى لتكاد نمسه وتوميء إليه جميعاً بالأمر الذي انتظره طويلاً . وجاهد أن يظل قابضاً على مكانه ، ولكنها تفلتت من أصابعه وهوت مع القوس . . . ومعه .

يجب أن نعيش

وأسرع إليه زملاؤه يحملونه إلى غرفة قريبة ، ولكنه أفاق في الطريق وإن كانت عينه لا تزال زائفة ، ونظر إلى المدير الذي كان قرب رأسه بصوت متقطع غير واع : « لقد دخلت متأخراً هذه الليلة أيضاً . . . » ولكنه حين أفاق وارتد إليه رشده كاملاً ذكر أنه لم يتأخر ؛ فقد دوره في العزف لم يأت بعد ، وإنما هي بوادر هذه النبوة التي أصابته أضاً معالم اللحن من رأسه ومسخت الأصوات في أذنيه . وتحركت شفاته وهمس : « هذه آخر مرة » .

ولم يسمع همسه أحد ، ولكن زميلاً ظن أنه سمع شيئاً ! فسأله : « ماذا » فأجاب : « لا شيء . . . » ثم خرج .

وسار في الطريق لا يدرى إلى أين يذهب ؛ فهو لا يريد أن يعود إلى غرفته في هذا البيت الذي كان يحبه ويدخله في خشوع ، كأنه معبد مقدس من معابد الصين ، ويحمل لسكانه لوناً من احترام الآلهة . إنهم فنانون . . . فهم أيضاً آلهة صغيرة خالقة . وقد اختاروا هذا البيت يتمون فيه صنعهم ، ويفرغون فيه لنفهم . وراقته فكرة هذه الحياة التي تعينه على التصنيف في الموسيقى فسكن غرفة في البيت .

ثم كشف على الزمن أنهم يحبون حياة حظها من التركيز الفني قليل . وكان في طبعه أن يأخذ نفسه والناس بمقاييس دقيقة قاسية ، ولكنه ، لسبب لا يدرىه ، كان يجفل من أن يصدر على جيرانه هؤلاء حكماً حازماً . وكلما ساءل نفسه : أهم فنانون خالقون ؟ أم هذه حياة مختلقة زائفة ، وهؤلاء إنتاجهم ثروة وخلقههم هراء ؟ كان يهرب من الحكم كأنه يوشك أن يقطع أعناقاً بريئة .

ولكنه على كل حال ، قضى في غرفته هذه التي يخشى الليلة دخولها أوقاتاً سعيدة حلوة ، عكف فيها على فنه وأقبل عليه بشوق العاشق وحرارته ، وعرف فيها قسوة الفن حين يستعصى ويأبى الإفصاح ، وذاق مرارة الصراع مع الأصوات قبل أن يأسرها وينظمها ألحاناً ، وجاش كيانه بالفرحة الطليقة حين يقوم عن مائدة العمل ويهمس لنفسه : « لقد صنعت الليلة شيئاً » .

وكانت هذه كل دنياه . فما يعرف أنه خلق إلا ليجمع هذه الألحان التي تطوف برأسه دائماً ، منذ درس الأصوات وبدأ يدرك أسرارها . وتخاذلت رغباته ومطالبه من هذه الدنيا ، حين رآته يضعها جميعاً تحت قدمه ويخنقها

وهو يركع في محراب فنه . وكانت براعته النادرة في العزف ترفع قدره عند زملائه ومدير الفرقة ، ولكنه كان لا يأبه لهذا أو يهتم به ؛ فقد كان يؤمن بأن مكانه ليس أمام الحامل الحديدي للأوراق الموسيقية بين أفراد الفرقة ينتظر أمر المدير بالابتداء والانهاء ، ويذهب يكرر أصواتاً من صنع غيره ، كالطفل الذي تدفع الشكلات في حلقه دفعا ، ليكررها أمام الأضياف .
إنه لم يخلق ليكون عازفاً . . . بل مؤلفاً .

وحمل هذه الأمنية اليتيمة في صدره ، ولم يشرك أحداً في سره ، ولم يكر من الكلام عن الفن والصنعة فيه ؛ لأنه لا يؤمن إلا بالعمل والكدح في سبيل الوصول إلى القمة والكمال .

ومرت السنوات ، وخرجت الألحان من رأسه متوالية متداركة . وكان يقضى الليلة بعد الليلة يعيد لحنه الأخير ، ويكرره حتى تتصلب أصابعه وتموت الحساسية من أطرافها ، فيلقى كأنه آسفاً ويترك الأوراق مكانها ويجر ساقيه إلى الفراش وفي قلبه حسرة توشك أن تهشمه . كلا . . . إنه لم يصل . . . لم يصل بعد . . . ولا تزال اللمة السحرية للفن بعيدة عن هذه الألحان ، والانبثاق الخالدة للجمال ضائعة بين ثنايا الأصوات .

وتراكت الأوراق الخاملة على مكتبه ، وتراكت الأخران في قلبه . وساءل نفسه وكأنه يتوسل إلى ربه : « ماذا ؟ ماذا ينقصني ؟ »
وفي أيامه الأخيرة هذه أجاب في ذلة قاسية :
— موهبة السماء . . . العبقريه . . . لم أعطاها .

وبكى ونشج . ولما انتهى البكاء والنشج بعد أن تركا في قلبه يأساً خطيراً ، جلس يفكر ليصدر حكماً حازماً كعادته .

إنه خلق ليعيش في السماء العالية للفن ، فهو لا يعرف لنفسه دنيا غير هذه ، ولكن سلمه إلى السماء واه قصير ، فكيف يعيش معلقاً بينها وبين الأرض ؟
كلا ! كلا ! ليس له أن يعيش بعد هذا . . . بعد هذه الليلة . . .

وساءل نفسه أين يذهب ؟ وخطر في ذهنه أن يمر على زميلته في الغرفة المجاورة ، وهي فتاة ثرية شغفت بالرسم ، ودرب يدها عليه ، وكان أفق خيالها قسيحاً فوسعها أن تبرع فيه ، وركبها ما يركب أهل الفن من شطحات الذهن ، فاختارت غرفة في هذا البيت تصنع فيها رسومها وإن لم تتخذها سكناً . وقد نشأت بينها

وبين جاريها الموسيقي وشائج صداقة ، ميزتها عن ود الجيرة وصلتها ببقية الزملاء حرية سمحة ، غفلته بنفسها ، وتبادلا خطرات الذهن وأمل السنين القادمة .
ونما كل منهما كالسرحة في قلب صاحبه . غير أنهما لم يجسرا على أن يعرفا ما بينهما ويعطياه اسماً صريحاً يذكر به ، فصار كالتقصص ينقصها العنوان وإن كانت لا تنقصها القدرة على الإيحاء بعنوانها الصحيح .

وعند ما خابت آماله في فنه ، وهوى تحت ثقل أحواله ، وقيد اليأس قلبه ، كانت كلماتها تنعشه وإن لم تشفه . فإنها لم تر فيما حدث له كارثة يتحطم وجوده من هولها . وإنما الفن شيء جميل حقاً ، يلون الحياة بلون بهيج سعيد ، ويعطي لرياحها اللامعة رقة تعين على تحملها ، ولكن غيابها لا يعنى الموت والفاء . وكانت تقول :

— إن ما يحزنك هو صورتك التي ترسمها لنفسك مترجحاً بين السماء والأرض ، كالسجين بين صور الماضي وأحلام المستقبل ، كالطائر في القفص . إنك نود لو تكون إلهاً . ولكن من يدري ! لعل هذه رغبة سببتها فورة الشباب ، وستنتهي وتترك لك نوعاً من الرضا ، وستنسى على الأيام رغبتك هذه ، وترضى بسجنك وتذهب فيه لاعباً ضاحكاً فرحاً . بل سيأتي اليوم الذي تعجب فيه للطيور الشابة وهي تنطج بأجنحتها جدران القفص تريد الانطلاق . فقال لها :

— كلا . . . لا أستطيع أن أحطم أجنحتي . . . لست أملك الجرأة على هذا ، ولا أعرف كيف أعيش هنا ، على هذه الأرض ، كهؤلاء الأناس الذين تموج بهم الحياة .

كانت تريد أن تبث في قلبه حب الحياة ، ولكن إخفاقه في ألحانه يشتت محاولتها ويبددها هباء . وكان يرى في نظراتها وعطفها ورغبتها في إنهاضه دعوة عالية صريحة إلى عالمها كأنما توشك أن تقول له :

— لئن فاتك الفن ، إنك لم تضع الحب . هو وحده قادر على أن ينسبك آلامك . . . بنسبك السجن وأجنحتك الكسيرة .

ولكن يأسه كان خطيراً يوحى له أن عمل الفنان فوق كل شيء ، حتى هذه السعادة الثمينة يجب أن يضحي بها من أجله . وضاعف آلامه علمه أنه يحطم قلبها ويقتل الزهرة الجميلة النادرة التي نبتت فيه .

يجب أن نعيش

وكان هذه الليلة يريد أن ينفذ الحكم الذى أصدره . وتمنى لو يراها مرة أخيرة ويستمتع إليها ويلمس يدها ، فهى منذ ليال فى غرفتها تزعم أنها تعمل ، وإنما هى تتخذ العمل وسيلة البقاء بجانبه حتى تنتهى هذه الشدة التى نزلت به . ولكنه خشى أن تخور عزيمته ويتضاءل عزمه أمام حنائها ونظراتها الدافئة ، فترك طريق البيت . وتحدرت دموعات على خديه فصرّ على أسنانه يمنع نفسه من البكاء ، وسار بقدم ثابتة إلى غايته .

وحين وصل إلى شاطئ النيل ، عند القنطرة الصغيرة التى تواجه المعرض كان الليل فى شيخوخته والقمر يشحب وقد أتعبه طول السهر . فاسند ظهره هنيهة إلى السور دون أن ينظر إلى الماء . كان يعرف تماماً علام هو مقبل . وتصور نفسه فى الصباح ملقى على طين الشاطئ مشوه الوجه منتفخاً كقربة الماء وحوله الناس يتلاغطون ، فلم تزججه هذه الصورة أو ترعبه ، بل همس وهو يعتلى السور :

— اننى لم أغضب أو أرض حين أرغمت على دخول هذه الحياة ، فلم أرضى أو أغضب حين أرغم على الخروج منها ؟
وهوى إلى الماء

وكان يحسب كل شئ قد انتهى ، فترك نفسه تغوص بقوة السقوط . ولما ظهر فوق الماء وجد أنه يحرك ذراعيه وجسمه بقوة جديدة ، وشعر بشئ من الزاوية لنفسه ، فاستكان هنيهة ، ولكنه أحس كأنه فى بحر من الدم ، وملاً الماء حلقه وطمس عينيه وأكربه فأوشك على الغوص . وكان له شئ من الدراية بالساحة فعاد إلى الحركة وضرب الماء . وعجب لماذا صفا ذهنه فصار كالصحيفة البيضاء تستجيب لكل ما يكتب عليها . وامتلاً الجو حوله بموسيقى أطلق حازفوها لأصواتها العنان يسابق بعضها بعضاً . إنه يعرف هذه الألحان جيداً
هى الألحان التى حكم عليها بالفناء والعدم . ورأى فجأة أنه لم يكن له حق الحكم . ليس من حقه أن يقتل هذه الأبناء ولا أن يخنق ما لم يخرج بعد إلى الحياة منهم . ونذكر أوراقه فى الغرفة يقلبها الهواء قبل أن يجمعها الزملاء كوما وتحرس إلى الأبد ، وامتلاً برغبة طاغية فى العودة إلى عمله وإلى صاحته .

كلا لن يحرم منهما وصار كأن ذهنه يردد :

— العمل والحب كلاهما

ووصل الشاطئ فارتقى عليه حتى لذعته برودة الفجر ، فقام يسير ببلولته
يترنخ ويتلفت خلفه وكأنه يخشى أن تجذبه إلى الماء أيد خفية .
وحين هم أن يدفع باب غرفته أحس يداً خفيفة توضع على كتفه وصوتها
يهمس في جزع : « أين كنت ؟ . . . إنك تقطر ماء » . ثم لكانها فهمت فندت
عنها صيحة ذاهلة ، فالتفت إليها وأطال النظر في وجهها وقرأ السؤال الحائر في
عينها ، ثم خفض رأسه وقال :

— نعم ! . . . (ثم بعد هنيهة قصيرة) : ولكنني واثق أنه لم يكن جنباً . . .

وأرادت أن تتكلم ، ولكنه وضع يده على فيها في رفق وقال :

— في الصباح . . . في الصباح .

وأغلق الباب على نفسه .

وسمعه طويلاً يعزف ألحاناً خافتة حتى أغلق النوم جفونها .

درويش الجبل